

# الأدب وتجربة العبث

تقديم وترجمة لفصته سفيو « فيض النيد »

بقلم الدكتور عبد الحميد إبراهيم

شيء امامه عبث ، واذا القايات والاهداف تتساقط عارية . وهو موقف يفرق بين الانسان الحقيقي والانسان الجماد . فالانسان قبل هذا الموقف وقبيل ان يتفجر الوعي في داخله هو اشبه بعربة الاتوبيس التي تعمل من السادسة صباحا ، ويكون عليها اذا كانت تحمل رقم ٨ مثلا ان تسير من التحرير الى الاهرام وبالعكس . ان العربة هنا تكاد لا تفرق عن سائقها . ولكن ما ان يتفجر الوعي حتى يتغير كل شيء وتختفي البلاد والرتابة . ان موقف الوعي نفسه مع ما فيه من عذاب هو جزء صاحبه لانه اصبح انسانا من نوع آخر ، وهذا الموقف له من الجاذبية والاعراض ما لا يعادله بشيء . ان ميرسو في رواية « الغريب » يداهمه الاحساس بان كل شيء باطل وقبض الريح . ان مشاعره متجمدة ازاء كل شيء ولو كان موت أمه . انه يقتل ولا يحس بأنه يقدم على شيء ، ان كل شيء مسموح به . لقد حكم عليه بالاعدام ولكن لا شيء يهم . انه يتمنى ان يجتمع حوله متفرجون كثيرون . انه يحس في نهاية الرواية بفيض من الاحاسيس تزخر بها نفسه . انه يشور على الكاهن وعلسى كل من يشاركون في اللعبة المزيفة لانهم لا يدركون ما قد أدرك . انهم يعيشون في عماء ويحبون عن أنفسهم وبحمقهم حقائق زاخرة تفيض على نفسه بالفرح والاحاسيس الثرية . انه يفوفهم ، ومن ثم فان « ماري » تحبه لا لشيء الا لانه « غريب الطبع » على حد وصفها .

وايتالو سفيو (٢) في فصته هذه يكشف لحظة العبث . ان الناس يجتمعون على العشاء احفالا بزواج ابنة اخيه . انهم يأكلون ويشربون ويتحدثون ، ولكنه لا يحس بسعادتهم بل يحس بشيء من الاشمئزاز والضيق . انه يدرك ما لا يدركون . انهم يصدرون عن موقف المتفرج ، ولكنه هو قد داهمته لحظة العبث . ان الحياة هي

( ٢ ) ايتالو سفيو ( ITALO SVEVO ) ايتالي ايطالي ولد بتريسنا سنة ١٨٦١ ومات بهونادي ليفنزا سنة ١٩٢٨ ، وقد عمل مهندسا الى ان اكتشفه جيمس جويس الذي حملة على نشر روايته الشهيرة « اعترافات زينو » Confessions of zeno ونشرها سنة ١٩٢٢ . اما فصته « فيض النيد » generous vin فقد كتبها قبل سنة ١٩١٤ ثم نشرها متفحة في ميلانو سنة ١٩٢٧

راجع :

« Shart Sentimental Journey and other Stories » translated B Y : L . Collison Morley

( لم يعد العالم مغفولا ) . تلك هي صيحة الام في مسرحية « سوء تفاهم » لالبيير كامو وقد تكشف العالم امامها عاريا وسقطت عنه جميع الافئدة ، وذلك هو الاكتشاف الذي توصلت اليه التجربة العيشية في الادب المعاصر . انه ادب جريء وشجاع لم يرض ان يعيش في خداع وان يعطي للعالم معنى من صنعه . ان العالم هو ذلك الشيء الخارجي القائم بذاته والذي يتحدانا . انه عالم بلا معنى ، ولكن الانسان القديم لم يحتمل هذه الحقيقة لانها تثير القلق والتحدي ، فخلع على العالم من تصوراته واعطاه من الفهم ما يمكن ان يبرد به حياضه ويسمح له بالعيش بعيدا عن القلق والتور . ان العالم بذلك يختلف باختلاف الاسقاطات والقيم المفروضة عليه . فهو امام الاغريق يختلف عنه امام فلاسفة الاسلام ، وهو في فريفة من فري مصر يختلف عنه في فريفة من فري انيمن ، وما ذلك الا لان الانسان يضيف على العالم شيئا من نفسه ويقدمه في الصورة التي يريد ان يحيا بينها وان يمنحه الامن ومواصلة العيش . ولكن تجربة العبث المعاصرة تواجه الحقيقة التي يهرب الانسان منها ومن تحمل مسؤوليتها . انها تضع العالم بين قوسين وتطرح تل ما هو دخيل عنه . ان صيحة ديمتري كارامازوف « يا الهي كل شيء مسموح به » ليست صيحة من يجري وراء غرائزه وملذاته ، ولكنها صيحة من يحس بعظم المسؤولية وقد اصبح مطالبا بان يطرح كل ما كان يعيش فيه من قيم معان تبعث في داخله الطمانينة والرضى . ان تجربة العبث هي كالتشك الديكارتى ان الذي هو الخطوة الاولى لتوصول الى اليقين ، ولكنها اعظم تقلا منه . ان المنهج الديكارتى هو الشك فاليقين ، ولكن تجربة العبث لم يسعدها الطالع فتصل الى الخطوة التالية ، أي الى مرفأ الامان . هي آحست ان العالم قد فقد معناه ، ولكنها لا تدعي انها فادرة على منحه المعنى المفقود . وهنا سر التوتر وسر الارتعاش وسر الحركة المضطربة في ادب العبث : انه ادب قد وضع في قلب التجربة وهي عارية من كل شيء وتكاد لا تنبئ بشيء ، وهو ادب ناصح لا يريد ان يخدع نفسه فيصفي على التجربة ما يريه لانه يدرك ان موقف المواجهة مع ما فيه من عذاب هو الموقف الجدير بالانسان ، لانه موقف الوعي الذي يتفجر فجأة داخل الانسان « من منقطع شارع » ، مثلا ، على حد تعبير كامو (١) ، فاذا كل

( ١ ) راجع : « كامو والتمرد » ص ١٠ ، تاليف روبير دولوبيه وترجمة الدكتور سهيل ادريس ( منشورات دار الآداب ) .

مرض وقيود وتقاليد اجتماعية . أنها جيوفاني وألبرتي وزوجه وابنه وابنته . ان كل هؤلاء حمفي يسعون نحو المأل والسيطرة والاستمتاع . لقد أفلحوا بمنطقهم الفليدي في ان يجعلوا واحدة منهم تترك حياة الرهبنة والطهر ويدخل عالم الزواج . انه يريد ان يثور عليهم ، ان يهدم فوائدهم . لقد أحوالوا حياته جحيما لا يطاق وجعلوه يلجأ الى المسكنات والادوية . ان كل شيء لم يتفلسف على وجه الارض ، فلا تزال الارض - ورغما عن كل الافكار التقدمية - منكنا خاصا ، ولا تزال الاغلبية من الناس تتصور جوعا ، فماذا يهمهم بعد ذلك ؟ ان كل شيء متساو ومسموح به ، واذن فيضرب بنعسايم انظيبب عرض الحائط ، وليسرف - على الرغم من دانه - فسي الأكل والشرب . الا يحتمل هذا المساء اشياء اخرى مضرة وعسرة انهضم ؟ وهنا تبرز لحظة السخرية والعبث بالتقاليد الزائفة . انه يلقي حجرا في بحيرة آسنة ، فيسخر من ألبرتي ، ويريق الخمر في البالوعة ويشتم ابنته ويشير ضحيجا وعجيجا وهم يحسبوا ان يعاملوه كطفل كبير او كمجنون ، وان يرضوه حتى لا يفسد صفو ليلتهم . انكم ايها الحمقى تعيشون عالما غير حقيقي . اما انعالم الحقيقي فهو ذلك الكابوس الذي يترأى له حين أوى الى غرفة نومه . ان الحياة هي كابوس ، هي ذلك الكهف من صنع الانسان . انها عيون حافدة ومطاردة ، انها أشبه بالززانة او بذلك الصندوق الزجاجي الذي يلاقي المرء فيه العذاب وحيدا . ومن مصدر العذاب ؟ انهم المحيطون به بتعاليمهم الجوفاء ونصائحهم الفارغة وأفهم الضيق . انه يرى في عالم الكابوس زوجته والطبيب وهم يعددون جرائمه . ان زوجته كما يقول تحبه دائما حبا غيبيا . ان عالم الحلم هو العالم الحقيقي ولكن الناس يزيفون ذلك حتى يعيشوا سعداء . انه يكشف زوجته في الصباح بجريهتهما في انجاب الاطفال ، فتجيبه ببساطتها المهودة: « ولكنهم سعداء بالحياة » . نعم سعداء ، ولكنها سعادة الجاهل الذي لم تتراء له الحقيقة ، ومن ثم لم يرد ان يكشفها بحقيقة الحلم . ان سمس الصباح وحركة النهار فد غطيا عالم الحلم . ان الانسان دائما يهرب من الحقيقة الى عالم من وهمه وصنعه . ان البطل في هذه القصة يزمع على ألا يعود مرة اخرى الى هذا الكابوس المرعب الفظيع ، وهو ايضا يصنع لنفسه المسكنات واتقيم ، فحتى لو عاد الى هذا الكهف فلن يلجأ الى القدر ولن يلجأ الى التزلف مثل كلب يهز ذيله .

« و سفيو » لا يلجأ الى تكتيك تجريدي ولا يخلق عالما موازيا لهذا العالم يطبق فيه آراءه وافكاره كما هو الحال عند كافكا (٢) ، انه يختار شخصياته وأحداثه من وسطه ومن مخالطيه ، ومشافله ليست مشاغل ميتافيزيقية . ان ما يؤرق المتهم عند كافكا هو البحث عن تهمة عند قضاة لا يعرفهم ، وما يشغل فوكنر في رواية « الصخب والعنف » هو رواية المعتوه عن عالم لا رابط له . ولكن ما يؤرق سفيو هنا هي تلك الاشياء العادية في حياته . لقد منح البطل في تلك القصة حريته ، ولكن أية حرية في جسد مريض ؟ انه يريد ان يشرب وان يثور على القد ، ولكن حجره يفص بها حلقة . ان الحياة فسي طقوسها العادية هي سر الأماسة عنده . ان الاشياء المألوفة تتحول عنده الى مشكلة . انه يناضل ويكافح من أجل ساعة من النسوم مع ان « أي حصان عجوز ومتهالك يمكنه ان يقفو وهو واقف » على حد قوله .

ان التعبير عن عبثية الحياة وغموضها لا يلزم بالضرورة ان يلتزم صورة واحدة كما هو الحال في الكثير من قصص الشبان عندنا . ان لكل كاتب من الكتاب العالميين لونه المتفرد في التعبير عن ذلك . ان بيكيت تصيح القصة عنده بلا رأس ولا ذيل . هي

(٢) راجع دراسة « كافكا والموت » ، مجلة « الآداب » -

نوفمبر سنة ١٩٧٠ .

صورة من الحياة كما يراها . انه لا يعبر بل يصور ، فمن الصعب ان تخرج بمعنى تدل عليه القصة ولكنك تخرج بانطباع واحساس . ففي قصته « بخيل الميت يتخيل » Imag-mation Dead Imagine نجد اضطرابا وفوضى وقبوا يقلب مرة ويعدل ثانية ، انسه يريد ان يشكل انطباعه نحو الحياة وان يجعل من تركيب قصته معادلا فنيا لهذا الانطباع . انه لا ينطلب من الشكل ان يعبر وان يقول شيئا ، ولكن ينطلب منه ان يصير الشيء نفسه . ان الشكل لا يصبح معبرا عن الاحاسيس ومقابلا لها ، ولكنه يخلط بها ويصبح جزءا منها . هو يختلف عن كافكا الذي يلجأ الى اترمز والى خلق عالم في قصته من شخصيات ذات اسماء ومهن واطواع اجتماعية ، ويقم من هذا العالم بناء موازيا لعالمه المعاصر ولكن يحمل نظريته ازاء هذا العالم . ان قصته لا تخلط ولا تصيح بلا رأس ولا ذيل . انها تحمل دلالات ومعاني . وان « آلان روب غرييه » يكتب قصته بصورة مختلفة تماما . انه لا يضفي عليها أية دلالات واحاسيس بشرية . انه يشكلها بطريقة موضوعية تماما تحفظ للشيء الخارجي استقلاله عن سيطرة الانسان وادعاءاته . انه يعتمد في قصته على الوصف التفصيلي للشيء وتتبع دقائقه ، بحيث يظهر له وجوده الخارجي المستقل تماما عن المشاعر الانسانية . ان المشاعر عنده لون من التزييف يلقيه الانسان على الطبيعة فيخلع عليها معاني من صنعه . ان أهم صفة للشيء هي وجوده وحضوره . واذا استطاع الفنان ان يرسم هذا الوجود فسيكون حينئذ صادقا وموضوعيا ، اما اذا أضفى على هذا الوجود شيئا او معنى فانه سيحس نفسه بعد ذلك في عالم من صنع نفسه ومن صنع دلالاته ، وستمنع اتحقيقه حينئذ عن ان تسفر له (٥) . وان سارتر يعتمد على ان ينقل القارئ الى الموقف الخارجي بكل خصوبته وتسايبه . ان الطبيعة كتكتف « روكاتان » في رواية « الفثيان » وتحيط به من كل جانب : جذع لشجرة ، وخط لظل صغير ، ووسادة لمقعد ، وغط ، وزجاج مبيض ، ورجل ذو عيين زرقاوين . ان كل هذا يكتنف روكاتان ويشكل معناه . ان الوجود هنا يسبق الماهية . وان سارتر يقول في هذه الرواية : « لقد تحررت الاشياء من اسمائها ، فهي هنا وحشية عبيدة عملاقة ، ومن السخف تسميتها بانها مقاعد او التحدث عنها بأي شيء . اني وسط الاشياء التي هي غير قابلة للتسمية ، انها تحيط بي وحيدا بلا كلام ولا حماية ، تحتي وخلفي وفوقي ، انها لا تطلب شيئا ولا تفرض نفسها . انها هنا ... » (٦) . اما ايتالو سفيو فهو يرسم ضيقه بالحياة من خلال طقوسها العادية . ان الممارسة اليومية تصيح قيودا وثقلا ، وان الراوي في قصته « فيض النيذ » يرى الحياة ثقلا لا يحتمل ومرضا مميتا . انه يثور عليها فيأكل ويشرب رغسـم تعاليم الاطباء . ومن ثم كان اعتماده هنا على السرد وعلى ذكر الاحداث اليومية الجارية .

ان الفن فن بمقدار ما يحمل من طابع التفرد والتميز ، واللحظة المعاصرة هي ملك للجميع ، ولكن التعبير عنها يختلف باختلاف الموهبة والابتكار . ان الكثير من قصص الشبان عندنا يكاد بعضها لا يتميز عن البعض الآخر ويصبح من الصعوبة ان تجد لكل قصة طابعها المستقل . ان مشكلتنا في روح التقليد التي تسري بين مختلف مظاهر الحياة عندنا . عرفنا الشكل التقليدي في القصة فاذا بالاف القصص

(٤) راجع :

The Penguin Book of modern Europlan Short Stories 1969

(٥) راجع دراسة « مع قصة لالان روب غرييه » (مجلة

« الآداب » - اغسطس سنة ١٩٧٠) .

(٦) « الفثيان » ص ١٧٨ ، ترجمة الدكتور سهيل ادريس

( منشورات دار الآداب ) .

تؤلف وتكاد ان تكون على صورة واحدة ، بل انها تتشابه حتى في اختيار الموضوع وفي معالجة المشكلة ، بل وفي استخدام بعض المفردات والانفاظ . وما ان يظهر بيننا شخص مبدع وتفه فرديته حتى يتوالى على نهجه الكثيرون . ظهر محمود نيمور في القصة القصيرة فاذا بطريقته في عرض الشخصيات ورسمها رسماً خارجياً مع التركيز على ما فيها من شذوذ وأمراض نفسية تصبح مهوى الجميع . وظهرت روايات نجيب محفوظ التي تدور في الأحياء الشعبية فصارت نفمة سائدة ان يتحدث الفاص عن الأحياء الشعبية ، واصبح من الاستغراف ان يمتون روايته باسم حي شعبي . وظهر الحديث عن القرية والعبث فاذا بجميع الشبان يتحولون الى فلاسفة ويدركون ما في الحياة من عبث وخداع حتى ولو لم يعانون هذا العبث او يقرأوا شيئاً عنه . قد يكون التقليد مستساغاً في بعض المظاهر الأخرى ، ولكنه ان يكون كذلك وبأي حال في جانب الفن ، لان الفن أساساً يقوم على الحرية واستيحاء الذات والفوض في اعماقها .

انه بهذه الصفة يدخل مجال الفن وليس بصفة التحلى الجديدة والانواب المصرية . ان اتقذ لا ينظر الى العمل بقدر ما فيه من « اكسسوارات » ، ولكن ينظر اليه كمخلوق يقاس نجاحه ووجوده بقدر ما يتمتع به من شخصية تثير في داخل القارئ الحرية ويدفعه الى الاحساس بالجمال . ان لكل تجربة شكلها ووجودها ، والفنان الحقيقي لا يكتب قصته من اجل ارضاء اناس ومن اجل ما هو سائد ، وانما يكتبها من اجل الفن ومن اجل منطقته الذي يختلف من لحظة ابداعية الى أخرى . ان اللحظة الفنية لا تكرر والا فقدت عنصر الفن ، لان الفن أساساً ابتكار . انه حالة ، واجتهاد الفنان هو من اجل ان ينقل هذه الحالة ويحاول ان يمنحها وجوداً في حدود وسائله ، نفمة كانت أو حرفاً . ان الحرفية مهما كانت لا تستطيع ان تخلق « حالة » داخل الفنان ، وكل جهدها ان تحيط بهذه الحالة وان تنقلها من مرحلة الهجس والانظار الى مرحلة الوجود والتشكل . ان الحالة المصنوعة حالة زائفة مهما كانت من البراعة ، لانه ينقصها شيء قد لا يستطاع وصفه ولكن يمكن الاحساس بفقده ، ذلك الشيء هو ما يسميه يحيى حقي بالاحساس العريزي بروح الفن القصصي ونبضه ومزاجه (V) . والفنان الحقيقي لا يحاول ان يدخل في خلق هذه الحالة وانما يتركها تتشكل في داخله وتنمو شيئاً فشيئاً كجنين داخلي ، حتى اذا انتهت فترة الحضانه وجاء اوان الفقس ، فيحينئذ يتدخل باجتهاده وبصناعته . وفيما يلي ترجمة القصة :

## فيض النبيذ

بدأت ابنة اختي في الزواج وهي تقترب من سن السوانس وتبتعد عن سن الشباب . ومن المؤسف ان نبيذها للعالم لم يطل ، فان ضغط الأسرة قد حملها على العودة اليه والتخلي عن دعوة العقيدة الى الرهبنة ، فقبلت عرض الشاب الذي اختارته أسرتها لانه قرين كفؤ . وغالباً ما تكون هناك نهاية للحلام عن العزلة الظاهرة التي تدعو اليها العقيدة . وحدد يوم الزفاف بأسرع مما رغب الأقارب الذين يجتمعون الآن على العشاء في حفلة ليلة الزفاف .

ضحكت في سري وقلت : لعله عجوز مجرب ، فهل يستطيع الشبان ان يحملوها على تغيير فكرتها هكذا بسرعة ؟ فمن المحتمل انه أخذها بين ذراعيه وجعلها تحس بمباهج الحياة ، ثم غرر بها بدلا من ان يحاول اقناعها . وهذا هو السبب في فيض النهائي النسوي تنهال عليها . ان كل الناس يحتاجون الى من يهنتهم ليلة الزفاف . ولكن هذه الفناة تعامل بطريقة لم يعامل بها أحد من قبل . وانه لنكية اذا أحست في يوم ما بالندم لانها استجابت لضغطهم على العودة

( ٧ ) فجر القصة المصرية ، ص ٢٠ .

الى هذه الطريق التي نفرت منها بطبيعتها . ومن خـلال معايرتي لبعض انكؤوس صفت نهضة مناسبة لهذه الحالة الخاصة « أمنسى لكما السعادة سنة وستين ثم بواصلان السير برحاء اكثر . اشكر فضلكما عليّ بان أتحتما لي هذه اللحظات من السعادة . ان الانسان قد يندم على ما فات ، وهذا الندم هو الائم الحقيقي في الحياة ، ولكنه ألم يلند به الانسان الاصيل » .

ولم تفصح مشاعر العروس عن حقيقة الموقف الذي يدعو الى هذه النهائي الكثيرة . وحقاً قد بدأ وجهها كالبلورة يشف عن مشاعر التبدل والجرأة ، ولكن هذا المظهر ن نفس المظهر الذي اكتسبه يوم ان اعلنت رغبتها في ان نمزول بالدير . لقد قطعت على نفسها عهداً في ذلك آتحين بان نظل في غبظتها على مدى الحياة . ان اناساً آخرين يقطعون عهداً بمثل هذه الطريقة ، فهل هي حافظت على عهدا اكثر من غيرها ؟

وكان الجميع مسرورين الى أقصى حد ودون كلفة لانهم يصدرون من موقف المتفرج . اما انا فلم تكن لدي القدرة على الاستجابة للسرور . ان هذا المساء لا ينسى بالنسبة لي . فقد أفتحت زوجتي الدكتور « باولي » على ان يدعني بسبب هذه المناسبة آكل وأشرب كالآخرين . وكانت الحرية اكثر اغراء من ان استجيب للتحذير الذي فقد اثره ، فنصرفت تصرف شاب صغير اعطي قيادته لأول مرة ، فآكلت وشربت لا لانني جائع أو عطشان ، بل من شدة حنيني الى هذه الحرية التي كنت محروماً منها . وكانت كل مضافة وكل مصمة تأكيداً للإمبالاتي . وفتحت فمي بإسراع اكثر مما هو لازم لتناول اللقمة . وكانت الخمر تمر من الزجاجة الى الكأس الى الطوفان الذي لا يشبع ولم اتركها اكثر من لحظة واحدة ، واحسست وانا ملتصق بالكروسي بالرغبة في ان أتحرك هنساً وهناك ، وان اجري واقفز مثل كلب قد انفلت من سلسلته .

واركبت زوجتي ما هو أسوأ حين أخبرت جاري بالنظام الذي أسير عليه في الاكل . وكانت ابنتي « ايما » البالغة من العمر خمس عشرة سنة تصفي الى أمها وتكمل ايضاحاتها وقد اكتسبت طابع الاهمية . انهم يذكرونني بالوثاق الذي حل منذ لحظة . أسعيدوني اليه ؟ ان كل العذاب قد نمثل تي . كيف كانوا يزنون قطعة اللحم الصغيرة المسموح لي بتناولها في الظهيرة وقد جردوها من كل طعم . وكيف كانوا لا يجلدون شيئاً يزونونه في المساء ، لان العشاء يتكون من قرص من الخبز مع مضافة من لحم الخنزير المقدد وكوب من اللبن الساخن بلا سكر ، فكان يثير فخرزي . وبينما كانوا يتحدثون ضربت بعلم الدكتور وبنظامهم عرض الحائط . ماذا يحدث لو خالفت النظام ؟ انهم نجحوا في فعلتهم فجعلوا انساناً يتزوج ارضاء لهم . أفلا يحتفل هذا المساء أشيئاً أخرى مضرة وعسرة التهضم ؟ اني ساشرب تاهياً للثورة على الفد ، فليروا .

اصطف الحاضرون لتناول « الشمبانيا » بعد ان شربوا بضعة كؤوس على نخب صحتهم . اما انا فقد عدت الى نبيذ « استوريا » العادي ، اذ كان حراقاً وصرفاً أرسله أحد اصدقاء الأسرة بسبب هذه المناسبة . وأنا أحب هذا النبيذ حب الانسان تذكيراته واشعسر بالثقة فيه ، ولهذا لم أندعش حين أشعل الفيظ في صدري بدلا من ان يجلب لي السرور والنسيان .

كيف يمكنني ان اعبر عن غيظي ، وقد أحالوا جانباً من حياتي عبثاً ثقيلاً عليّ ؟ فالخوف والكتب جعللا ابدعائي تقنى تقاء بعض الادوية والحبوب والسفوف التي تكدست قسي الحجر . للجميم بالجمتمع ، فلن يهمني شيء اذا كسانت الارض - ورغما عن الافكار العصرية المستنيرة - لا تزال ملكية خاصة ، او انه بناء على هذا لا يحصل الكثيرون على قوتهم اليومي ولا على قليل من الحرية التي تسمو بها حياة الانسان . أيجب ان يهمني شيء من هذا أو ذاك ؟ لقد حاولت هذا المساء المبارك ألا اغير شيئاً من طباعي القديمة،

وحين بدأ ابن أختي « جيوفاني » - وهو رجسـل ضخم في وزن سبعة عشر حجرا - يحكي بصوته الجهوري الفصص عن فطنته فسي العمل وغيا الآخرين ، أحسست بغيرتي القديمة سترك في صدري فصحت فيه : « وماذا تفعل لو ان الصراع بين الناس لم يعد من أجل المال ؟ » .

وعقدت ملاحظتي الحادة لسان جيوفاني للحظة ما . فقد فاجأته لتقلب عالمه ، وبدأ يحمق في بعينيه اللتين عظمتها النظارة . وكان يبحث عن تفسير في ملامحي يولي وجهه نحوي . وبينما كان كل شخص ينظر إليه منوقعا ان يضحك من اجابة هذا الغبي السذي لا يخلو من ذكاء عملي ، اذ كان عقله خليطسا من البساطة والخبت وملكيا بالفرائب مع انه قد وجد من فبسل « سانكوبانزا » . وعلق وهو يكتسب وقتا بان الخمر تفسد مظهر الانسان في ساعاتها ولكنها بالنسبة لي قد افسدت تصوراتي عن المستقبل .

وكانت هذه مجرد اجابة ، فما ان اكتشف اجابة احسن حتى صاح : « حينما يتوقف الصراع من اجل المال فسامتلكه كله بدون صراع وبلا نقصان » . وانطلقت ضحكة طويلة ، وخاصة على اشارته بين الحين والحين بذراعيه الضخمين وهو يمدهما الى اقصى حد ثم يشكلهما في قبضته ليؤكد فكرة احتوائه على المال كله وانه يتبعه من كل جانب .

واستمرت المناقشة ، ولم يسلا حظ احد انني اصمت مكثيا بالشراب . لقد شربت كثيرا وتكلمت قليلا ، وانا مستغرق كلية في مراقبة نفسي لارى فيما اذا كانت تفيض بالاريجية والغيرية . وبدأت احترق ببطء من الداخل ، ولكنه احترق جعل يتألق في احساس بالشباب جلبته لي الخمر في لحظة مركزة للغاية .

وصحت في جيوفاني متوقفا كل هذا : « لو انك احتويت المال فان الآخرين سيرفضون ويسجنونك » .

فرد باستعداد كاف وهو يصيح : « حينئذ سارشدو الحراس ، وأسجن الذين لا يملكون شيئا يرشون به » .  
- ولكن النقود لا تدفع رشوة لاي انسان .  
- ولماذا اذن لا يدعوني امتلكها ؟

استشطت غضبا وصرخت فيه : « ستمشكك ، فانت لا تستحق اي شيء الا حبلا حول رقبتك وعلى قدميك » .

توقفت في دهشة ، وخيل لي انني قد نجحت في نقل افكاري بوضوح . فهل كنت في الحقيقة كذلك ؟ لا ، وبكل تأكيد لا . ففكرت « كيف يمكن ان استرد حبي لكل الكائنات الحية بما فيها جيوفاني ؟ » . فابتسمت اليه فجأة وانا ابذل جهدا كبيرا ارضاء لسيدي ، واعتذرت اليه وقبئلته ، ولكنه منمني لانه لا يعير ادنى انتباه لآتسامتي المتسوددة ، وقال وكأنه يوطن نفسه على معرفة الجحيم : « لا بأس ، ان كل الآداب الاجتماعية تتوقف عمليا ونحن نهيى بمن ينفذ حكم الاعداء » .

لقد احتقرني وانا كرهتسه ، فهو قد سمم كل حياتي التي استرجعها الآن بأسف وحساسة . حتى تلك السنون التي لم اعرف فيها الطبيب نفضها علي . لقد احتقرني بانارة الريبة المتناهية التي احسها بحدة قبل ان يتكلم .

وما أسرع ان حلت بي مصيبة أخرى ، فقد قالت أختي وهي تنفـرس في باستحسان « انه يبدو في صحة جيدة » . وكانت هذه الملاحظة نذير شوم ، فحالما سمعتها زوجتي حتى اعتقدت ان الصحة المفرطة التي نالقت في وجهي تنتج مرضا يعادلها في القوة ، فأصابها الرعب كما لو ان هناك خطرا يقترب ، وهجمت علي بقوة وصرخت : « كف عن هذا والى بالكأس » . ثم استعانت بجاري تطلب النجدة منه . وكان جاري هو « البيري » ، من اطول الرجال في المدينة . انيق ومتين وذو صحة جيدة ، ولكنه يلبس نظارة مثل « جيوفاني » .

وقالت له : « من فضلك خذ الكأس من يده » . وحسين رانه يتردد أصبحت اكثر قلقا وانفعالا وقالت له : « يا سيدي ، ابذل ما فيه الكفاية لتنتزع الكأس منه » .

حاولت ان اضحك ، او خيسل لي انه من حسن الآداب ان اضحك ، ولكنني لم أستطع . لقد أعددت خطتي من اجل الثورة على الغد ، وليس خطتي اذا ما فاجاني ما يسيء الى هذه الخطة . حقا ان المشاجرات في الاماكن العامة أمر مخجل ، فان « البيري » الذي لا يساوي مليما بالنسبة لي او لزوجتي أو لاي احد من هؤلاء الذين يتسلون بالنظر اليه ، قد ارتكب أخطاء أساءت الى مركزي . اذ أطل من خلال نظارته على الكأس التي شبثت بها ، ومد يديه يحاول ان ينتزعها مني ، ولكن ما أن نظرت اليه حتى سحبها بحركة مضحكة وكأنه خائف مني . وانكل قد ضحك ، حتى جيوفاني استغرق في ضحكة عالية ومشييرة جعلته يلهث .

وظنت ابنتي « ايما » ان أمها في حاجة الى المساعدة ، فجعلت تستعطيني - او هكذا خيل لي - بنفمة مبالفة : « بابا ، لا تشرب اكثر من ذلك » .

فصبت جام غضبي على هذه الطفلة البريئة ، ووجهت اليها كلمات جارحة ومتوقدة وبامتصاص يصدر من رجل كبير هو في الوقت نفسه أب ، فامتلات عينها بالدموع ، وانصرفت اليها أمها تسكتها ولم تعرنى أدنى انتباه .

واقبل ابني « اوتافيو » - البالغ من العمر ثلاثة عشر عاما - الى أمه يستأذنها في الذهاب مع بعض اصدقائه الى معرض الصور دون ان يلاحظ دموع أخته او يتنبه الى المشاجرة التي أدت الى ذلك . ولكن أمه لم تلق بالا اليه لانها كانت مشغولة بترضية « ايما » .

فأردت ان استرد احترامني لنفسي وان أؤكد سلطتي ، فصحت في « اوتافيو » أعطيه الاذن : « طعما انا اسمح لك بالذهاب لرؤية الصور وهذا فيه الكفاية » . فرجع الى اصدقائه ولم يترتب وهو يقول : « أشكرك يا بابا » . فأصابنتي الحسرة لانصرافه هكذا بسرعة ، فلو انه مكث ممنا وكانت سعادته في ظل سلطتي لطبت نفسا بذلك . ورفعت الكؤوس عن المائدة لبضع دقائق ، فأحسست انني قد قصرت في واجبي ازاء العروس التي نشرب الآن نخب سعادتتها ونسوق اليها الامنيات الطيبات والرغبات السعيدة . انها الشخص الوحيد الذي يمكن ان يفهم مشاعري ، او هكذا خيل لي . وكانت ترنو الي بحنان بالغ وهي على أهبة الاستعداد لان تعنذر لي وتلاطفني . هذه الفتاة دائما توحى لي بالثقة في انجازاتها . فعلت ذلك حين كانت مفرمة بحياتها في الدير ، وتفعله الآن حين تقيم من نفسها مثلا يحذبه الآخرون في التخلي عن هذه الحياة . كانت تنظر لسلي ولزوجتي وابنتي من فوق الى تحت وكانها ترتي لنا ، ثم حطت عينها الجميلتان الرماديتان فوقنا وهي تبحث عن مكن الخطا . ففي اعتقادها انه لا اله دون ان يكون هناك خطأ من شخص ما .

واشتعل حقدني على زوجتي ، فسياستها هي التي أذلتني بهذه الطريقة وحطت من منزلتي امام أقل واحد من الموجودين . وفي ركن قصي كقب صغار أخت زوجتي عن الحديث ، وتلاصقت رؤوسهم الصغيرة وهم يتناقشون فيما قد حدث . ثم قبضت على كأسي وانا أتساءل : هل أفرغها او اذفب بما فيها الى الحائط او الافضل الى النافذة ؟ ثم أنهيت ذلك بان أهرقتها في البالوعة . وكان هذا الدليل الفعال على تأكيد لا ميلاتي . ان أحسن خمر هي ما ذقته هذا المساء . ولذلك جعلت اصب منها شيئا فشيئا الى كأسي وأرتشفه قليلا قليلا وانا أطيل في هذه العملية . ولكن السرور تأبى علي ، وأخذت الحياة العنيفة التي سالت في عروفي شكل الغضب . وتملكتنسي فكرة غريبة ان ثورتي لوحدي لا تكفي في تصحيح الاوضاع . الا يمكن ان أقترح على العروس لكي تنضم معي في هذه الثورة ؟ ولحسسن

الحظ ، في تلك اللحظة بالذات ، تسبمت بعذوبة الى ذلك الذي يجلس باعتدال الى جانبها فقلت : « انها لا تعرف شيئا بعد ، ولكنها ستفنتع لو عرفت » .

وتذكرت ان جيوفاني قال « دعوه يشرب فالخمر لبن المجرى » ، فنظرت اليه وأنا أكرمش وجهي في شكل ابتسامة . فاني لا أجه ، وأعرف ان كل ما يهمه هو ألا أعكر مزاجه ، فأراد أن يتراضاني وكانني طفل سييء الطباع يريد ان يعكر صفو الكبار .

ولم أشرب كثيرا ، ولم أفتح فمي بعد ذلك لان الآخرين كانوا ينظرون اليّ . ان كل من حولي يتصايحسون ببهجة ، وكان ذلك يضائقني . لم أصغ اليهم وان لم تكن هناك صعوبة في أن أسمع . وبدأ جيوفاني وألبيري بتناقشان ، وكان اتجميع يتسلون بملاحظة النقاش بين السمين والرفيع . فيما كانا يتشاجران ؟ لا أعرف وان كنت قد سمعت الكلمات الجارحة من كليهما ، ولاحظت ان ألبيري قد هب على قدميه ، ثم مأل تجاه جيوفاني حتى بلغت نظارته وسط المائدة ثم التصق به تماما . اما جيوفاني بجرمه الثقيل الذي يزن سبعة عشر حجرا فقد تمدد براحة على الكرسي الذي أعطيه في نهاية الاكل على سبيل الدعابة . وكان يتفرس في ألبيري بامعان ، وكان كمرأوغ قدير يبحث عن منفذ يوجه منه ضربته الطاعنة . ولكن ألبيري ايضا كان معتدا بنفسه . هو بحق كان نحيفا للغاية ولكنه كان سليما متين البنيان .

وتذكرت كذلك النهائي والامنيات التي لا حد لها ساعة الوداع . وقبلتني العروس وهي تبسّم بحنان ، فاستلمت قبلتها وأنا شارد الذهن متسائلا : متى تحين الفرصة لكي أقضي اليها بأشياء عن تلك الحياة التي هي حياتنا ؟

وفي تلك اللحظة ذكر شخص ما اسما لصديقة قديمة ، وهي الآن صديقة زوجتي . لا أعرف من ذكر هذا الاسم ولا المناسبة التي قيل فيها ، وكل ما أعرفه انه آخر اسم سمعته قبل ان يتركنا الصيوف في سلام . ومن سنين قد اعتدت على رؤيتها غالبا مع زوجتي ، وكنت أرحب بها بالفة غير مبال بالناس الذين لا يريدون ان يتذكروا اننا قد ولدنا في مدينة واحدة ، واننا في عمر واحد تقريبا . على أي حال أذكر انني قد انصرفت عنها منذ سنين كثيرة ، فقد كنت مغرما بها حتى تلك اللحظة التي اقترنت فيها بزوجتي . ولم يفهم انسان ذلك السلوك الغريب الجاف الذي لم أحاول أن الطفه بكلمة واحدة . لانها هي ايضا قد اسرعت في الزواج بعد ذلك وكانت سعيدة جدا في حياتها . ولم تكن حاضرة ساعة العشاء لان انفولنزا خفيفة - وليس شيئا خطرا - قد ألزمتها الفراش . ولكنه شيء غريب وهام ان اذكر الآن الاساءة الى حينا ، تلك الاساءة التي انقلت ضميري وأرهقتني بما فيه الكفاية وجعلتني احس انها كانت كعقاب لي . وخيل اليّ انني اسمع ضحيتي من على سريري حيث تقضى فترة النقاهة تحتج قائلة : « ليس من العدل ان تكون سعيدا » . فانصرفت الى حجرة نومي مبتسما ومرتبكا ، فليس من العدالة في شيء ان اترك زوجتي تسيء الى شخص حلت محله . واقبلت « ايما » لتقول لي : « طبت مساء » . كانت مبتسمة ووردية وناعمة ، وقد نشرت حولنا جوا من البهجة لا يكون الا حيث يكون الشباب والصحة . وقد تعودت حدثا أن أفهم طبائع الآخرين وخاصة ابنتي التي هي في شفاقة الزجاج . فان هياجى قد جعلها مركز اهتمام من عيون الآخرين ، فتمتعت بذلك بكل بساطة . قبلتها وأنا مرتاح لاننى أراها هكذا سعيدة وراضية ، ثم رايت من واجبي ومن اجل مصلحةها أن أبين لها انها لم تعاملني باحترام كاف ، ولكن الكلمات لم تسعفني فاسمكت لساني ، ثم انصرفت وما زالت محاولتي في البحث عن كلمات تشغلنى وتربكنى وتكلفني جهدا . فهدأت نفسي وقلت : « ساحتها في ذلك غدا واكشف لها عن الاسباب » . ولكن

هذا لم يجد ، فانا قد أسأت لها وهي قد أسأت لي ، ولكن الاساءة البالغة ان تنسى كل شيء مع انني لم أكف عن التفكير في شيء . واتى « اوقافيو » كذلك ليستأذن في النوم . غريب أمر هذا الولد . لقد قال لنا « طابت ليلتكم » دون ان يعبرنا انبهاها . وحين نادبته وقلت له « هل كنت مسرورا بالذهاب الى معرض الصور ؟ » نوقف وبذل جهدا ليتذكر ، وقبل ان يستمد قال باقتضاب : « نعم » والنوم يقالبه .

وناولتني زوجتي علبه الدواء ، فسألتها وعلى وجهي قطعة من الثلج : « هل هذه هي الحبوب ؟ » . فأجابت بتلطف : « هي بالطبع » . ثم سألت بتلثم وهسي لا تعرف وجهة أفكارى : « هل انت بخير ؟ » . فأجبتها بشبات وانا اخلع فرقة حداني : « انا على احسن حال » .

وفي تلك اللحظة بدأت معدتي تشتعل ، فقلت في نفسي وانا أرتاب في غرضها : « هذا ما تعنيه » ، ابتلعت حبة من الدواء بقليل من الماء ، فأحسست ببعض الراحة . ثم قبلت زوجتي على خدّها بطريقة آلية قبلت تذهب بطعم الدواء ، ولكن لا مفر منها اذا أردت أن أنجو من المناقشات والمباحثات . ولكن لن أرتاح حتى أوصح موقفي من الصراع الذي لم ينته بعد بالنسبة لي ، فقلت وأنا أسترخي على السرير : « اظن ان الحبوب تكون اكثر تأثيرا لو اخذت مع الخمر » .

اطفأت زوجتي النور ، وانبأسي انتظام تنفسها على خلو بالها . انها غير مبالية تماما بكل ما هو من شأني . لقد كنت أتربك تلك اللحظة بشغف . فأخيرا اصبحت حرا في أن « أشخر » كما يحلو لي أو أبكي لما أنا فيه من اليأس . وأردت أن أفعل ولكن الالم اشتد في اللحظة التي نلت فيها حريتي . أين هي الحرية وكيف يمكنني أن أنفص عن القصب الذي يشتعل بداخلي ؟ كل ما استطلعت ان افعله هو ان افكر فيما سافوله غدا لزوجتي وابنتي « لقد كنتما فلفتين للغاية على صحتي حين أخذتما تضايقتي امام الناس » . انني هنا على السرير اشتعل غيظا بينما هم ينامون في امان . يا للنار التي تشتعل بداخلي ! ان جمرة ضخمة قد اجنحت جسدي وهي تحاول ان تخرج من خلال زوري . ان هناك زجاجة ماء على « الكوميدينو » حاولت ان اصل اليها ، ولكن يدي ضبقت الكوب الفارغ . وكانت هذه الضجة كافية لان توقظ زوجتي . فقالت : « نعم » ، ثم نامت بعين واحدة مفتوحة .

قالت بصوت خفيض : « هل تحس بالأم ؟ » . فخمنت انها لم تكن متأكدة تماما مما سمعته ، ولم ترد ان تزعجني . ولكن فكرة غريبة تملكنتني ، انها تتبع حالتني وكانها تلمس الدليل على صواب رايها ، فتخلبت عن فكرة الماء ولزقت بالسرير . وفي التواعد الى نومتها الخفيفة التي تمكنها من ملاحظتي .

وبكل صراحة ينبغي عليّ ان انام حتى لا اتورط فيما هو اسوأ مع زوجتي . فأنغمضت عيني واستندت على جنبي ، ولكن اضطرت لتغيير هذا الوضع من جديد . وكنت عنيدا فلم افتح عيني . ان كل وضع يعني التضحية بجزء من جسدي . وقلت : « يستحيل النوم مع جسد مثل هذا » . اصبحت كلي حركة وكلي استيقاظ . ان الرجل الذي يعدو لا يمكن ان يفكر في النوم . وجعلت الهث كرجل يجري وصوت اقدمي وهي تخبط بأحذية ثقيلة يملا أذني . فكثرت الا يمكن أن أعثر على وضع يريح كل أطرافي . لا جدوى من المحاولة . فرايت ان اترك كل عضو يجد المكان الذي يناسبه . طويت نفسي باقصى عنفاستطيعه . وفجأة تمتت زوجتي : « هل تحس بشيء ؟ » . لو استعملت تعبيرا آخر لأجبتها طالبا منها العون . ولكني ارفض ان اجيب على هذا التعبير الذي يومية يتشف الى شجارنا .

وبعد ، فما زال امر نومي امرا يسيرا . اية متاعب توجد في رفادي على السرير ؟ رحمت اقلب كل المصاعب الكبيرة التي بكننف سبيلنا في هذه الحياة . ووجدت ان مسألة النوم لا تعني في الحقيقة شيئا اذا قيست بآية عقبة . ان أي حصان عجوز ومتهالك يستطيع ان يغفو وهو واقف . ووجدت ان كل الاوضاع قد استنفدت فسي تصميمي على النوم . ولكن كنت متشبثا حتى النهاية ، فانشبثت اسناني في نهاية الوسادة ثم لويت نفسي بطريقة استقر صدري فيها على الوسادة ، وتدللت رجلي اليمنى فكادت نلمس الارض ، وشبثت رجلي اليسرى بالسرير فشبكتني به . يا لله ! لقد اكتشفت طريقة جديدة ، فلست أنا الذي يمك بالسرير ولكن السرير هو الذي يمك بي . وحين نزداد الازمة كان يخيل لي انني قد فقدت الحياة ، ومن ثم نشبثت اكثر بالسرير . ولكن لا بد من حل ، فجعلت اطمئن نفسي ان جزءا من تلك الليلة المزعجة قد مر ، وانني قد نلت جزائي . فاطلقت نفسي من السرير بنشوة مصارع قد تخلص من قبضة غريمه .

لم أعرف كم غفوت . كنت متعبا . ولدهشتي فقد لاحظت لعانا غريبا في عيني المغفلة . انه اعصار من اللهب يخيل لي انه صادر من النار التي تشتعل بداخلي . لم يكن لهيبا حقيقيا ولكنه في لون اللهب ، ثم اخذ يتلاشى وهو يتشكل في دوائر او على وجه الدقة في قطرات من سائل لزج ، تحول لونه الى لون ازرق وهادئ وان كان محاطا بحواش حمراء ومتهوجة . وكانت هذه القطرات تتساقط من فتحة من فوق ، ثم تمتد وتتفرق الى ان تختفي اسفل . وخيل لي في اول الامر انها تستطيع ان تراني ، ثم ما اسرع ان تحولت - لكي تراني بطريقة افضل - الى عيون ضخمة وكثيرة . وبينما هم بتكاثرون وبشكلون دائرة صغيرة مسن مركز سقوطهم تبدو ذات غطاء ازرق ، انكشفت عين حقيقية شيرة وحفودة ، وطاردتني مجموعة من الناس تضم لي الكره ، فاضطربت وجعلت أن وأصيح : « يا الهى » . سألتني زوجتي فجأة : « هل تحس بشيء ؟ » .

مضى وقت قبل ان اجيب ، تذكرت فيه انني لم اكن على السرير بل كنت ملقى بقربه ، وان السرير قد انخسذ وضعا مانلا بسبب سقوطي ، ثم اجبتها صائحا : « اني مريض ، مريض جدا » .

اوقدت زوجتي شمعة ، ثم وقفت بجسوارى بقميصها الاحمر كسفتي ، فاقنعت تمام الاقتناع بانني قد تمت حتى ساعتى تلك ، لان السرير ما زال في وضعه المستقيم ، وما زلت راقدا فوقه بمنتهى الراحة . وحين تأكد لي ذلك ولم اتذكر فيما اذا كنت قد طلبت نجدة زوجتي ، نظرت اليها بدهشة وسألتها : « ماذا ترين ؟ » .

نظرت اليّ وهي متعبة ونصف نائمة . ان صيحتي جعلتها تقفز من السرير ولكنها لم تسلبها رغبتها في النوم ، التي كانت قويسة لدرجة انها لم تتحر فيما اذا كانت على حق ام لا . لم تصيح وقتنا فسألتي : « هل تريد النقط المنومة التي وصفها لك الطبيب ؟ » . تلعثت مع ان رغبتى في التحسن كانت قوية . ثم قلت وانا اظهر التمتع فقط : « اذا احببت » ، لاني اعرف ان تناولى النقط لا يعني شيئا سوى الاعتراف بانني في حالة سيئة .

ومرت لحظة تمتعت في اثنائها بسكينة تامة ، واستمر هذا طيلة الفترة التي كانت فيها زوجتى تعد النقط على ضوء الشمعة الخافت وعليها قميصها الاحمر . السرير كان مستويا دون ادنى شك ، وجفوني كامنة اذا ما اغلقتها لتجذب الضوء عن عيني ، وكنت افتحهما من حين الى حين ، فكان الضوء الخافت واحمرار القميص يمنحاني من الراحة مثل ما يمنحها لي الظلام الخالص . ولكن زوجتي لسم تستمر في مساعدتي لحظة اكثر مما يتطلبها الموقف . فتركتني وحيدا في ظلمة الليل اناصل من اجل الراحة .

تذكرت انني وأنا صغير حين كنت اريد النوم فانني اجبر نفسي على التفكير في منظر عجوز قبيحة ، فتتنصرف عني المناظر البديعة

التي كانت تؤرقني . أما الآن فانني استعدي الجميلات بدون خوف ، فهل سيساعدني او ان هذه هي الميزة الوحيدة للعجوزات ؟ فكرت في كثير من الجميلات اللواتي كنت احبهن في الشباب ، في السن اللاني يتكاثرن فيها بأعداد كثيرة . وجعلت استنجد بهن بالاسم ، ولكنهن لم يأتين بل ولم يبدو انهن سيأتين . فجعلت اصيح وأصيح بالحاح ، حتى ارتفع لي من خلال الاسماء وجه واحد بديع ، انها « أنا » . نعم هي كما كانت منذ سنين كثيرة ، ولكن وجهها الذي كان متوردا وجميلا ومعبرا ، قد اكتسى بمسحة من الامم والتبكيث . وكان واضحا ان ظهورها لن يعني الراحة لي ولكن يعني التأنيب . وجعلت أتحدث اليها . انني اعرضت عنها من قبل وكان من العدالة ان تسارع بالزواج من اي انسان آخر . وهي قد أنجبت بنتا عمرها الآن خمسة عشر عاما ، وتشبه أمها في لونها الرقيق وشعرها الذهبي وعينيها الزرقاوين ، وان كان وجهها قد تحرف بتأثير ذلك الذي اختير لان يكون ابا لها . وقد ضمت شعرها المتعوج اللطيف في كتلة من خصل مشدودة ، وكان خداهما كبيرين وفهما واسعا وشفتاهما ممتلئتين للغاية . ان لون الام قد اتحد مع قسماث الاب فاعطيا تأثير قبلة متحدية في مكان عام . ماذا تريد « أنا » مني الآن بعد ان تعمدت ان اراها وهي متباطئة ذراع زوجها ؟

وكانت هذه هي المرة الاولى التي احسست فيها في ذلك المساء انني قد نجحت . ان « أنا » قد أصبحت اكثر لطفا وتفكيرها قد تغير وقرينها لم يعد مستساغا لي . لعلها تمكث معي . وفي التسو استغرقت في النوم معجبا بها ومستحسنا فكرتي الرائعة الرابعة . ورايت حلما مرعبا ، فقد كنت في بناية غامضة لم افهمها في

اول الامر مع انني كنت جزءا منها . كانت عبارة عن كهف ضخم ووعر ، ليست فيه اية نقوش مما تسلي الطبيعة به نفسها بانجاده على الكهوف . وهذا يدل على انها من صنع انسان . وكنت جالسا هناك على كرسي بثلاثة أرجل وبجانب صندوق زجاجي مضاء بضوء خافت لا يصدر الا منه . وكان هذا هو الضوء الوحيد في البناية الضخمة . ومع ذلك فقد كان كافيا جدا ليكشف لي عن حائط ضخم مكون من حجارة خشنة وكبيرة وتحت حائط من الاسمنت . كيف تفسر المباني في الاحلام ؟ ستجيب ساخرا ان مهندسها يفهمها بسهولة ولكنسه لا يتذكر شيئا حين يستيقظ ، وحين يعود بذاكرته الى عالم الاحلام حيث تشاد هذه المباني بسهولة فسيدهسه ان كل شيء هناك يكون مفهوما دون الحاجة الى كلمة واحدة .

وفي الحال فهمت ان هذا المبني قد أعد ليكون تاديبا وعلاجا يعود بالشؤم على واحد من المحجوزين فيه - لا بد وان يكون هناك عدد من الناس موجودين في الظلام - ولكنه بفع عظيم للاخرين . نعم هذا ضرب من ضروب العقيدة يتحرى الضحية ، فكان من الطبيعي الا اندهش .

وكان سهلا جدا ان اخمن ان الاختيار قد وقع علي لاموت من اجل الاخرين ، ما دمت قد وضعت هكذا قريبا من الصندوق الزجاجي حيث كانت تخنق الضحية . وما اسرع ان عانيت مقدما من ألم الموت الفظيع الذي يعدّ لي ، فجعلت اتنفس بصعوبة ، واخذت رأسى تؤلني وتناقلت عليّ حين اردت ان اربحها على يدي او على مرفقي او على ركبتي .

ثم أصبح كل شيء مما يقوله الناس المختبئون في الظلام مفهوما لي ، فظهرت اول ما ظهرت زوجتي وهي تقول : « أسرع ، فالدكتور قال انه يجب ان تدخل في الصندوق » . ظننت ان هذا من قبيل المزاح المؤلم ، ولكنها كانت طبيعية للغاية ، فلم ابد أي اعتراض ، وكل ما هنالك انني اظهرت عدم السماع وقلت لنفسي : « دائما اعتبر حب زوجتي لي حيا غيبا » . ثم صرخت مجموعة الاصوات الاخرى وهي تقول بمنهجية : « ألا تنوي ان تطيع ؟ » . وميزت من بينها

صوت الدكتور « باولي » ، فلم اعترض وقلت لنفسى « انه يفعل ما يفعل من اجل النفود » .

ورفعت رأسي لاتفحص من جديد الصندوق الزجاجي الذي ينتظرنى ، فاكشفت ان العجوز كانت تجلس فوقه ، وقد احتفظت - حتى في هذا الوضع - بطابعها المميز في الهدوء ورباطة الجاش . كنت أستبين كثيرا بنلك المرأة العاديسه ، ولكن اكشفت انها ذات أهمية كبيرة بالنسبة لي . كنت اكشف ذلك في الحياة العادية ، كما اكشفته الآن وأنا اراها تجلس فوق الوسيلة التي اعدت لهلاكى . وحينئذ نظرت اليها وأنا أهز ذيلي مثل كلب من تلك الكلاب الصغيرة الحغيرة التي تهز ذيلها من اجل ان تشق طريقها في الحياة .

ثم تكلمت العروس دون عنف ، وبدت كلماتها طبيعية اكثر من أي شيء آخر في العالم ، قالت : « خالى ، ان هذا الصندوق قد اعد لك » .

فأصبح من اللازم عليّ ان اناضل من اجل حياتى وحيدا بيد واحدة ، وجعلت اتساءل كيف استطيع ان ابذل جهدا مضاعفا دون ان ينتبه احد . وفكرت في طريقة تمكني من ان اكسب قضيتى دون ان افتح فمى ، ثم عدلت عنها الى طريقة أخرى ، لم اعرف ما هي بالتحديد ولكنها تجعلني اناضل دون ضجة . وذلك بان انقض على اعدائى وهم في نوبة حراستهم . وما اسرع ان احسست بالتعب . ثم رايت « جيوفانى » - جيوفانى السمين - وقد جلس في الصندوق الزجاجي المضيء وعلى كرسي يشبه الكرسي الذي اجلس عليه وفي الوضع نفسه . ولان الصندوق كان منخفضا جدا فقد انحنى الى الامام وامسك بكؤوسه بيده ليمنعها من ان تحنك بانفه ، وقد بدا في تلك الهيئة وكأنه يفكر في مسألة تخص العمل ويستعين عليها بضممة كؤوس تساعده على التركيز . وفي الحقيقة لم يكن مشغولا بالموت الذي يقترب منه مع انه كان يستحم في عرقه ويلهث . وقد وضع في عينيه الارهاق والتعب فاستنتجت انه قد بذل جهدا مثل الذي قد بدأت ابسذله ، ولم احسن نحوه بأية شفقة بل كنت خائفا منه .

ثم تخلص جيوفانى من الصندوق واحتل مكانه البيري - ذلك الرجل السليم الرفيع الطويل - وقد اتخذ الوضع نفسه الذي اتخذه جيوفانى من قبل . ولكن الامور ، نظرا لطوله ، كانت اسوأ ، فكان ينحني اكثر واكثر . وهو في الحقيقة قد اثار شفقتى لانه - ممسا زاد في الله - لم يكتشف سوء النية ، فكان يتفحصني فوق وتحت بانسامة خبيثة ويخيل اليه انه يستطيع متى اراد ان يهرب من الموت في الصندوق .

ثم تكلمت العروس من فوق الصندوق للمرة الثانية قائلة : « والان ، يا خالى ، قد جاء دورك ، بالطبع » . وكانت تنطق كل مقطع بدقة متحذقة ، وصاحب كلماتها صوت آخر يأتي من بعيد جدا ومن علو شاهق ، واستنتجت من الضجة المنتشرة والتي يقوم بها شخص يتحرك بسرعة ، ان الكهف ينتهي بمرور وعمر يؤدي الى سطح الارض . وسمعت صغيرا ، ولكنه كان صغير ارتياح يصدر من « أنا » التي أبدت لي مرة كراهيتها التي لم تملك الجرأة لتعبر عنها بكلمات ، والا لافتعتها بانها قد ادينت تجاهى اكثر مما أنا فعلت . ولكن ماذا يجدي الاقناع امام الاحساس بالفض .

وقد ادانني كل شخص ، فقد رأيت زوجتي والطبيب يروحان ويجيئان منتظرين في طريق في جزء آخر من الكهف وسيبدأ منى ، وكان وجه زوجتي قد اكتسى مسحة من الاستياء ، وكانت تلوح بعنف وهي تعدد جرائمى : الخمر ، الاكل ، المعاملة الجارحة لها ولابنتها . وجعلت أجز نفسي الى الصندوق وعلى سيماء الفوز . كان البيري يستدير نحوى . اقتربت وأنا على الكرسي اكثر حتى كنت

على بعد بوصة تقريبا ، ولكنى افهمت ان القانون ينص على ان اكون على بعد نحو ياردة وحينئذ اطرح الى الصندوق بطريقة مضبوطة وفي دفعة واحدة وأنا ألتهت .

ما زال هناك أمل في النجاة ، فان جيوفانى الذي كان قد تخلص تماما من اثر نضاله الشاق قد اقترب - كما ينص القانون - من الصندوق الذي لم يعد مخيفا له كما كان وهو فية منذ لحظات ، وانتصب واقفا في الضوء وهو ينظر الى « البيري » الذي كان يلهث ويتنوع . فقد كان يتوعدني وأنا اقترب ببطء من الصندوق . فصحت : « جيوفانى ، ساعدني لابقيه في الصندوق وسادفع لك ما تريد » . واخذ الكهف كـله يردد صيحتى التي رنت كضحكة ساخرة . لقد فهمت ، فلا فائدة اذن في ان استجدي الرحمة ، فلست انا الاول ولا الثاني الذي يوضع في الصندوق بل الثالث . وقانون الكهف ، شأن كل القوانين ، هو الذي يمكن ان يساعدني . وكان من الصعب عليّ ان ادرك ان ما يحدث الآن لم يعد خصيصا من اجل ابذاني وان ما حدث لي كان نتيجة لهذا الظلام ولذلك الضوء . ولم يجب « جيوفانى » على ندائى وهز كتفيه ليبدى أسفه في انه لا يستطيع ان يبيع لي الامن .

وحينئذ صرخت للمرة الثانية : « اذا لم يكن بد فخذوا ابنتى وهي نائمة هنا قريبا منى ، وهذا افضل » . وارتدت لي هـسذه الصيحات في صدى عال . ومع انه لم يكن هناك فائدة فقد صحت انادى ابنتى : « ايما ، ايما ، ايما » .

وجاءتني اجابة « ايما » من مكان سحيق بالكهف . كان الصوت صوتها وما زالت فيه رنة الطفولة وهي تقول : « أنا هنا يا أبت ، أنا هنا » .

وبدا لي انها لم تجب على الفور ، ثم حدثت رجة عنيضة ظننتها نتيجة لقفزى الى الصندوق وقلت لنفسى : « هذه البنت دائما تتلصق في اطاعتي » . ولكن نلكها هذه المرة كان السبب في خلاصى وامتلاني بمرارة مؤلمة .

فقد استيقظت . وكانت هزة ونقلة من عالم الى آخر . وكان رأسي وجذعي خارج السرير ، وكدت أسقط لولا ان زوجتي سارعت الى نجدتي ثم سألتنى : « هل كنت تحلم ؟ » وتحركت وهي تقول : « فقد كنت تنادى على ابنتك ، فكم أنت تحبها ؟ » .

بهرت في اول الامر بالواقع ، وقد بدا كل شيء لي على حقيقته ، وقالت لزوجتي التي يجب ان تعترف كذلك كل شيء : « ان اولادنا لن يففروا لنا لاننا جئنا بهم الى هذه الحياة » . ولكنها اجابت ببساطتها المعتادة : « ان اولادنا سعداء بان يكونوا احياء » .

كان عالم الحلم هو العالم الذي احسست بانه حقيقى ، وكان يحيطني من كل جانب ، وارتدت ان اكشف عنه فقلت : « لانهم لم يعرفوا شيئا بعد » . ثم توقفت ولذت بالصمت . فعلى طلائع الضوء الذي تسلل من النافذة المجاورة لي فهمت انه لا ينبغي لي ان احكي حلمي ، اذ يجب ان اخفى العار الذي لحقني منه . ثم كفت تماما عن الاحساس بالعار على ضوء الشمس الذي بدأ ازرق ناعما ثم أصبح ملحا وغامرا للحجرة باجمعها .

ان عالم الحلم ليس عالمي ، فلست انا الرجل الذي يستجدي ويهز ذيله او الذي يضحي بابنته من اجل نفسه .

وعلى أي حال وبأي ثمن لا يجب ان اعود مرة اخرى الى هذا الكهف الفظيع . وهذا ما يفسر كيف اصبحت اكثر اذعانا واطاعة لاوامر الطبيب ، ولكن ايمكن ان يحدث هذا من دون أي خطأ منى ودون ان يكون نتيجة للجرعات المتزايدة ، ولكن بسبب لهيب الحمى التي تنتابني ؟ فعلى اذن ان اعود للكهف واقفز مباشرة الى الصندوق الزجاجي - لو وجدته - دون ان أهز ذيلي ثم اغدر .

عبد الحميد أبراهيم